ذكرى الهند

(تابع لما قبل)

وبعد ذلك زرنا حديقة الحيوانات في كلكتا وهي واقعة في غربيّ المدينة شرقيّ نهر الهوكلي وقد غُرست فيها الاشجار الباسقة وزُيّنت بالازهار البديعة وفُرشت ارضها بالنبات الاخضر وكل ذلك على ابدع شكل والطف ترتيب وأُقيم بين كل فسحةٍ واخرى عرائن وأوجرة واوكار لاكثر انواع الحيوان . وقد شاهدنا فيها كل اصناف القرود من الصيني والهندي والافريقي وهي كثيرة العدد بين كبير الجثة وصغيرها . ثم مررنا على مكان الوحوش المفترسة من الاسود والنمورة والفهود والذئاب والدِبَة والافيال والثعالب وغيرها ثم مكان الافاعي وفيهِ اكثر اصنافها وقد وُضعت كل واحدة منها في مكان يوافق غريزتها وبيئتها الطبيعية فجُعل بعضها بين الصخور الوعرة وغيرها بين الهشيم اليابس او العشب الاخضر وبعضها في احواض الماء . وقد رأينا بينها حيّة سوداء ضخمة جدًّا تبلغ مترين طولاً ومحيط جسمها نحو اربعين سنتيمتراً . ثم اتجهنا نحو اعشاش الطيور فرأينا هناك كل ما يأخذ بالبصر حسناً وينطق بتمجيد الخالق عزّ وعلا فمنها البلبل والكناري والهدهد والقُمريّ والطاووس والنسر والبازي والقطا مئاتٍ عديدة وغالبها من اطراف المعمور من الصين وافريقيا والهند واميركا واوربا . ففي هذه الحديقة يُسمَع التغريد والمناغاة والصفير والهدير والزُقاء والنعيق والصرصرة والعندلة والسجع والزئير والنئيم والفحيح وغير ذلك كلٌّ يعطي الصوت الذي خصّهُ بهِ المبدع .

وفي هذه الحديقة رأينا لاول مرة الكركدّن اي وحيد القرن وهو مولود في هذه الحديقة نفسها منذ اربع عشرة سنة ورأينا فيها التمساح وهو موضوع في حوض مآء ويبلغ طولهُ زهآء مترين . وفي الحديقة بحيرة فيها قوارب صغيرة لمن شآء الركوب والجولان في البحيرة وفيها اسماك متنوعة

وفي اثنآء ذلك زرنا اللورد كرزن الحاكم العام على الهند الانكليزية بعد ان استأذنّاهُ بواسطة كاتب اسرارهِ المستر وُلتا لورنس فركبنا في اليوم المعيَّن للزيارة حتى اقبلنا على دار الحكومة حيث يسكن الحاكم . ولما دخلنا باب القصر كان على الباب جنديّان قائمان فرفعا بنادقهما تحيةً لنا ولما بلغنا الباب الداخلي استقبلنا احد الخدم فدفعنا اليهِ بطاقة الزيارة فاوصلها الى كاتب الاسرار المشار اليهِ فما عتم ان ارسل احد الحجّاب يدعونا اليهِ في الطبقة العليا فسرنا حتى دخلنا غرفتهُ وجلسنا عندهُ هنيهةً تتجاذب اطراف الحديث وهو يتكلم بالعربية وقد تعلمها في مصر . وكان قد بعث بالبطاقة الى سعادة اللورد فما لبث ان جآء حاجبهُ الخاص يدعونا الى الدخول على سعادتهِ ومشى امامنا الى الردهة التي هو فيها . فلما دخلنا عليهِ نهض واقفاً واستقبلنا بكل انس واجلسنا بالقرب منهُ فلبثنا عندهُ نحو خمس عشرة دقيقة . ثم قمنا للانصراف فودّعنا كما استقبلنا وقد رأينا من لطفهِ وسعة صدرهِ ما اطلق لساننا بمدحهِ والثنآء على محاسن اخلاقهِ . وقد كان لهذه الزيارة ذكرٌ في جميع انحآء كلكتا لندور مثلها وفي اليوم التالي لها ظهرت جريدة « الانجليش مآن » (الرجل الانكليزي) فجآء في اخبارها المحلية « ان رئيس اساقفة بغداد نزيل كلكتا حالاً قد أُذِن لهُ في مواجهة سرية لسموّ الحاكم العام بعد ظهر امس »

وفي اليوم الثالث من تلك الزيارة اتتنا دعوة من الراجا دربانكا يذكر فيها ان اللورد كرزن وعقيلتهُ سيشرفان منزلهُ في ليلة الثاني عشر من ذلك الشهر وهو شهر شباط (فبراير) ويدعونا الى مشاركة الحضور في تلك الزيارة. فلما كان الموعد المضروب وهو منتصف الساعة العاشرة من تلك الليلة ركبنا الى دار الراجا المشار اليهِ ولما قربنا منها رأينا على الجدار المحاذي للطريق الوفاً من المصابيح الغازيّة ولما دخلنا الدار رأينا مئات من كبار القوم رجالاً ونساءً وقد ضُرب سرادقٌ عظيم نُصِب فيهِ عرش للّورد كرزن وقرينتهِ وأُنيرت الدار كلها بالمصابيح والانوار الباهرة وعُلّق شيءٌ كثير منها في الاشجار وعلى الجدران فكان هناك ما ينيف على عشرة آلاف مصباح تشقّ رداء الليل وتلقي عليهِ بهجة النهار وقد فُرِشت الطرق والابواب بالازهار والرياحين. وكان عدد المدعوين نحواً من الفي نسمة وكان الراجا المذكور يقابل الجميع ببشاشة وهو قد لبس حلة مزركشة وفي عنقهِ قلادة نفيسة فيها حجارة ألماس نادرة وكذا في خنصرهِ خاتم الماس بديع لم أرَ مثلهُ البتة وعلى رأسهِ كُمّة مرصعة لها طرّة (شرابة) من اللؤلؤ كبيرة الحجم. ولما رآنا داخلين اقبل نحونا فسلمنا عليهِ بالانكليزية فردّ السلام مرحباً بنا. وفي الساعة العاشرة اقبل اللورد وعقيلتهُ فاستقبلهما الراجا ولما صارا على مقربة من المحفل وقف جميع الحاضرين فحنى رأسهُ مسلماً على الجميع ففعلوا هم كذلك واستلّ عسكر الراجا الواقفون الى اليمين واليسار سيوفهم ورفعوها مسلمين وكانوا عشرة. واذ ذاك جلس اللورد وجلست عقيلتهُ عن شمالهِ والراجا عن يمينهِ ثم وقف عشرٌ من الفتيات الهنديات المغنيات فرحّبت احداهنّ باللورد وعقيلتهِ

باللغة الهندية ثم اخذنَ جميعاً في انشودةٍ هندية بصيغة قدّ من قدود الغنآء وكانت نغمتها من لحن ابي طاهر المشهور في ما بين النهرين بالطوراني وكان ثلاثة من الهنود يلعبون ببعض آلات الطرب مثل العود والكمنجة والطنبور

وكان الراجا قد سبق فهيأ في كل غرفةٍ من قصرهِ الفسيح الارجآء نوعاً من لُعَب الهنود الغريبة فشاهدنا في احدى تلك الغُرَف امرأة عجوزاً قد تناولت طاساً وصبّت فيهِ ماءً ثم غطّتهُ بمنديل ومدّت يدها بين الطاس والمنديل وشرعت تدمدم وما مضت فترة وجيزة حتى رفعت المنديل فظهر في الطاس اربع سمكات سود

وفي غرفةٍ اخرى شاهدنا رجلاً قد اقام بين يديهِ فتاةً لها من العمر نحو عشر سنوات وكان يتكلم فيخيَّل للسامعين ان آخَر يجاوبهُ تارةً من سقف الحجرة وطوراً من تحت الارض . ثم مدَّد الفتاة معترضةً على رأس عمود دقيق من الخشب فمكثت كذلك نحو ربع ساعة دون حراك واخيراً انزلها عن العمود فوجد انها قد اغمي عليها فحملها الى الخارج ليعرّضها للهوآء

وشاهدنا في احدى الغرف هندياً قد وضع امامهُ سبع عشرة كأساً من الفرفوري صفّها على شكل نصف دائرة. وكانت الاولى التي عن يمناهُ بحجم فنجان القهوة وما بعدها اكبر فاكبر حتى الاخيرة وقد جعل في كلٍّ منها نحو نصفها ماءً . ثم تناول خشبتين دقيقتين في يديهِ طول الواحدة نحو عشرين سنتيمتراً واخذ ينقر على افواه الكؤوس بخفة فكانت تعطي صوتاً مطرباً اشبه باصوات آلات الاوتار (ستأتي البقية)